

مراتب الإيمان ومقامات الكمال



يربط القرآن الكريم مفهوم التقوى بصميم القضايا التعبدية كالوفاء بالعهد، الصبر، الحج، عدم أكل الربا، القتال، طلب الرزق الحلال، الصلاة وغيرها من الأمور الشرعية، حيث تختم أغلب الأوامر الشرعية القرآنية بتوجيه رباني صارم بتقوى الله. فعندما يتناول القرآن الكريم موضوع النهي عن تناول الربا، يربطه بالدعوة إلى تقوى الله والثقة به: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 130)، وكذلك موضوع الإرث حيث أموال الأيتام الصغار، فإن الله سبحانه وتعالى لم يأمر الناس في الآية التالية بالترحم والتبرؤ ونحو ذلك بل بالخشية والتقاء الله والقول السديد (أي الرأي السديد): (لِيَذْخَسَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلَا تَقْهُوا اللَّهَ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَا سَدِيدٌ أَلَيْسَ عَلَيْنَا لِمَا نَصَرُّكُمْ آيَاتُنَا وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ) (آل عمران/ 76)، فجعل المقياس هو التقوى في الدين والوفاء بعهد الله وميثاقه والإيمان بما أنزل الله سبحانه، وليس قوم يحبهم من دون تقوى وإيمان وعمل صالح، فإن الخلق تبارك وتعالى لا يحب الناس على حسب قومياتهم وأجناسهم كاليهود والعرب وغيرهم، بل إن الكرامة الإلهية لا تمنح إلا للمتقين الذين لا يبرأون يذكرون الله في كل أعمالهم وأفعالهم. والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى يجمعها رابط، وهو أن الأمر القرآني جاء ليجمعها في آية كريمة واحدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 200)، فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، والصبر في طاعة الله، والصبر عن معصيته، والمصابرة هي التصبر وتحمل الأذى جماعة باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال ويشدد الوصف ويتضاعف تأثيره، والمرابطة، هي الارتباط بين قوى الجماعة وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، ثم تقوى الله حيث تجنب المعاصي ووقاية النفس مما يغضب الله سبحانه. وكان العرب في الجاهلية يعتبرون المرأة عنصراً ساقطاً لا قيمة ولا كرامة له، وعندما جاء الإسلام نزلت مجاميع من الآيات القرآنية. في أمر النساء حول الزواج والتحريم والإرث وغير ذلك، وقد نزلت هذه الآيات حين كلم الناس رسول الله (ص): (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ) (النساء/ 127). فأُرجعت للمرأة حقوقها المهدورة في جميع مجالات الحياة. (وَلِللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (النساء/ 131)، وفي هذه الآية الكريمة تأكيد في دعوة الناس إلى مراعاة صفة التقوى في جميع مراحل المعاشرة الزوجية، وفي كل حال، وإن تركه كفراً بنعمة الله. وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض. أي إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم

والذين من قبلكم وابتعدتم عن تقوى الله، فإنه كفرٌ بنعمة الله، وهذا النوع من الكفر يصطلح عليه في الشرع الإسلامي بالكفر المستكن أو المستبطن. وحتى في القصاص، وردَّ الاعتداء بالمثل أمر الإسلام بمراعاة صفة التقوى، حيث ذكر القرآن الكريم أنَّ الحرمة قصاص، والحرمة هو ما يحرم هتكه، وهي حرمة الشهر الحرام، وحرمة الحرم، وحرمة المسجد الحرام، فإن اعتدى المشركون فعليكم الرد، فإنه إنما تجاهدون في سبيل الله (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ فِيمَا ضَلَّ فَمِنْكُمْ ضَلًّا وَإِنْ عَدَاكُمْ فَأَعِدِّدُوا عَلَيْهِمْ وَمَا يَعْتَدِي عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة/ 194). وفي آية أخرى ربط القرآن الكريم بين العلم والعمل، ودعى إلى التقوى لئلا يفقد المشتغل بطاعة الله معنى العمل (الشَّهْرُ مَعْلُومَاتٌ فَمِنْكُمْ فَرِضٌ فَبيهنَّ الْحَجَّ وَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة/ 197)، وفي هذه الآية المباركة وجوه إشراقية جميلة فمعنى التزود أن أخذ الزاد يتم في فترات كالتزود بالطعام والتزود بالوقود وغيره، وعلى هذا فإنَّ التقوى تحتاج إلى تزود دائمٍ من ذكر الله سبحانه، وربط الأعمال الحياتية كلها بعنصر الخوف والخشية منه تعالى، وهذا الأمر لا يدركه إلا أصحاب العقول السديدة الواعية ولذلك ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله: واتقوني يا أولي الألباب، دلالة على أنَّ مفهوم التقوى لا تدركه إلا العقول السليمة والقلوب الواعية والنفوس المبصرة.. إنها دعوة فيها الكثير من الحنان والمودَّة من الخالق عزَّ وجلَّ إلى الطبقة الواعية المفكِّرة من مخلوقاته التي تعيش على هذا الكوكب.. فوضع القرآن الكريم أنَّ البر هو التقوى، والتقوى هي الصفة التي تجتمع فيها جميع مراتب الإيمان ومقامات الكمال.